٧

القاهرة - الصعيد إلى عيذاب

ملاحظات طريفة عن مصر وأهلها

يبدأ ابن بطوطة كلامه عن مصر بعبارة مثقلة بالمعانى ، ولا أحسب أنه ساقها لمجرد المحافظة على السجع ، قال: « ثم وصلت إلى مدينة مصر ، وهى أم البلاد وقرارة فرعون ذى الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة والبلاد الأريضة، المتناهية فى كثرة العمارة، المتناهية بالحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحطُّ رَحْلِ الضعيف والقادر ، وبها ما شئت من عالم وجاهل ، وجادٌّ وهازل، وحليم وسفيه، ووضيع ونبيه ، وشريف ومشروف ، ومنكر ومعروف ، وتموج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها، وشبابها يَجِدُّ[1] على طول العهد ، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد ». ومع أن الكتاب كله من صياغة ابن جُزَىّ ، فإنى أذكر أن هذه العبارة - أو معناها على الأقل - من كلام ابن بطوطة ، فهى لا تصدر إلا عن مشاهد ذكى ينفذ إلى حقائق الأشياء .

ويضيف بعد ذلك عبارة تدل على أن ما امتاز به أهل مصر من تفاؤل وميل للسرور قديم معروف كأنه خاصية شعبية : « وأهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو ؛ شاهدت بها مرةً فُرجةً بسبب بُرء الملك الناصر من كسر أصاب يده فزيَّن كل أهل سوق سوقهم ، وعلَّقوا بحوانيتهم الحلل والحلى وثياب الحرير ، ولبثوا على ذلك أياماً » (ص ٣٢) .

(١) يتجدد .

كثرة المدارس في مصر ومارستـــان قلاوون

ويشير إشارة سريعة إلى جامع عمرو ، ثم يقول : « وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها ، وأما المارستان الذى بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه ، وقد أعدَّ فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر، ويذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم (ص ٣٣). وهذه العبارة الأخيرة غير مفهومة ؛ لأن المعروف أن المارستان - وهو المستشفى - لم يكن يُغِلُّ مالاً ؛ بل كان ينفق عليه المال ، فكيف يكون له مجبى؟ فلعله يريد بذلك أن النفقة عليه ألف دينار فى اليوم .

كثرة الزوايا (الخانقاوات) فى مصر

ويقول إن الزوايا فى مصر كثيرة، وإنها تسمَّى الخوانق (جمع خانقاه)، والأمراء فى مصر يتنافسون فى بناء الزوايا ، وكل زاوية بمصر مُعِينة لطائفة من الفقراء ، وأكثرهم الأعاجم، وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف، ولكل زاويةٍ شيخ وحارس ، وترتيب أمورهم عجيب .

القرافة روضة الصالحين

ويُطنب ابن بطوطة فى مدح « قرافة » مصر التى أُعجب بها الكثيرون ممن رأوا مصر قبله وبعده ، والقرافة كانت مدفن الصالحين والعلماء من أهل مصر، ويقال إن عدداً من الصحابة دُفنوا فيها وعدد التابعين فيها كثير.

وكانت من أبرك مواضع الزيارة بمصر ، وكانت مرتَّبة على نظام جميل يصفه ابن بطوطة : فعلى القبور قباب ، ويقام حول الضريح سور ، وتُبنى فيه الغرف ، وكان الناس يخرجون كل جمعة للمبيت فى القرافة .

ويذكر عدداً من العلماء المدفونين فيها مثل عبد الرحمن بن القاسم العَتَقِى وأشهب بن عبد العزيز وابنى عبد الحكيم . وكانت روضة جميلة رويت فيها أحاديث تؤكد بركتها . وابن بطوطة كان من أواخر من رآها قبل أن يفسد أمرها بكثرة إقبال الناس على الدفن فيها وخروجهم إليها جماعات أيام الخميس وفى الأعياد والنوم والأكل فيها ، فضاع رونقها ونظامها ، وكانت فى الموضع الذى تقوم فيه اليوم إدارة الجامعة الأزهرية.

وكل شيء كان جميلاً في مصر حتى أيام ابن بطوطة ؛ إنما فسد أمره وتلاشى جماله في عصر المماليك البرجية الذين جاءوا بعد البحرية ، وأولهم السلطان الظاهر سيف الدين برقوق بن أنس العثماني اليلبغاوى ، وقد بدأ حكمه سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م . أما في عصر المماليك البحرية فقد احتفظت مصر برونقها هذا الذى يصفه لنا ابن بطوطة .

ابن بطوطة رأى مصر في أوج ازدهارها في العصور الوسطى

وكانت زيارة ابن بطوطة هذه لمصر في أثناء الفترة الثالثة من حكم الملك الناصر محمد بن المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي ، وهو عاشر سلاطين المماليك البحرية ، تولَّى وعُزل مرتين ، ثم أُعيد إلى الملك المرة الثالثة في رمضان سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م، وظل يحكم حتى سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤٠م ، وبعد وفاته مباشرة تأخذ دولة المماليك البحرية في التدهور السريع ، وكان ابن بطوطة في القاهرة في أواخر ٧٢٦هـ / أوائل ١٣٢٦ م فكان آخر رحَّالة زار مصر في أكمل صورها في العصور الإسلامية ، وبعد ذلك كان الانحدار ، وقد لاحظ ابن بطوطة عندما مر بمصر المرة الأخيرة سنة ٧٥٦هـ / ١٣٥٥ م أي : في حكم الملك الصالح صلاح الدين صالح ابن الناصر أن البلد فقد الكثير من بهائه .

ويتحدث ابن بطوطة عمن عرف من علماء مصر ، ويذكر منهم جماعة يستوقف نظرنا فيهم أنهم كانوا من جميع نواحي بلاد الإسلام ، فمنهم : ركن الدين بن القَوْبَع التونسي ، وأثير الدين أبو حيَّان الغرناطي ، وبرهان الدين الصَّفَاقُسِي ، وقوام الدين الكِرماني ، وبدر الدين عبد الله المُنوفي .

وهذه الأسماء تدل بالفعل على أن مصر كانت قد تحولت إلى مركز العلم الإسلامي الأكبر ، وأن أهل العلم جميعاً كانوا فيها سواء ، لا تفرقة بين مصري وغير مصري ، وذلك هو الذى جعل لمصر وجامعها الأزهر ذلك الطابع العربي الإسلامي العام .

ويبدو أن ابن بطوطة لم يسعد فى القاهرة كثيراً ، لأنه لا يذكر إلا مشاهداته القليلة دون أن يضيف ما تعوّدنا منه من وصف أحاسيسه وانطباعات الأشياء فى نفسه !

رحلته فى صعيد مصر

ولكنه بدأ يشعر بالسعادة حقًّا عندما بارح القاهرة إلى الصعيد فى طريقه إلى قوص؛ ليصل إلى الحجاز عن طريق ميناء عيذاب . فهو عندما خرج من القاهرة بات فى الرباط الذى بناه الصاحب تاج الدين بن حِنَّاء بِدَيْرِ الطين ، ودير الطين غُيِّرَ اسمها اليوم إلى دار السلام ، وهى ضاحية صغيرة فى الطريق من مصر إلى حلوان .

الآثار النبوية فى رباط دير الطين

ويطيل الكلام عن ذلك الرباط الذى « بُنِىَ على مفاخر عظيمة وآثار كريمة أودعها الله إياه ، وهى قطعة من قصعة رسول الله ﷺ ، والمِيلُ الذى كان يكتحل به ، والدرفش وهو الإشفاء (أى : المسلَّة أو الإبرة الكبيرة) الذى كان يخصف به نعله ، ومصحف أمير المؤمنين عثمان الذى كتبه بخط يده - رضى الله عنه - » .

ويقال إن « الصاحب تاج الدين بن حِنَّاء اشترى هذه الآثار الشريفة بمائة ألف درهم ، وبنى الرباط ، وجعل فيه للوارد والصادر (أى : للمُقبل والذاهب) الطعام والجراية لخُدَّام تلك الآثار الشريفة. نفعه الله بقصده المبارك» (ص ٤٣) .

ومن دَيْر الطين عَبَرَ النيل إلى الضفة الغربية إلى مِنْيَة القائد[1]، وهو نفسه لا يذكر أنه عبر النيل ، ولكننا نعرف ذلك لأن منية القائد على الضفة الغربية للنيل إلى الشمال من بوش فى مديرية بنى سويف الحالية ، وكانت مشهورة بالكتَّان شهرة عظيمة .

(١) يضبطها البعض بضم الميم ظنًّا منهم أن النطق المصرى الجارى (بالكسر) تحريف للفظ مُنية ، أى: ضيعة ، ولكن ذلك غير صحيح حين يتعلق بجغرافية مصر ؛ فلفظ « المنيا » - بكسر الميم - قديم قبل الفتح العربى.

المنيا

ويستمر فى المسير حتى منية ابن خصيب ، وهى مدينة المنيا الحالية ، وكانت تسمَّى منية ابن الخصيب ، ولفظ «المنيا» لفظ مصرى قديم ، والبلد مذكور فى الآثار القديمة ، ولكن ابن الخصيب عندما ولى عليها حُرِّف الاسم إلى مُنية أو مِنية . وكان الذى ولَّى الخصيب على مصر هو المأمون ، وكان فى أول أمره خادماً ، ثم نبه شأنه ، وفى المنيا أقام قصراً عظيماً زاره فيه كبار الشعراء ، ومن بينهم أبو نواس ، وقالوا فيه وفى مصر ونيلها أشعاراً جميلة وغير جميلة .

منبر منفلوط

ومن المنيا ينتقل ابن بطوطة إلى مَلَّوى ، ويتحدث عن كثرة معاصر قصب السكر فيها . وفى منفلوط يحكى كيف أن الملك الناصر بن قلاوون صنع منبراً عظيماً محكم الصنعة برسم المسجد الحرام ، ثم أراد نقله فى النيل إلى قوص ، ليُحمل منها إلى عيذاب ، فلما وصلت السفينة إلى منفلوط توقفت ولم تتحرك برغم مساعدة الريح ، وعبثاً حاول الناس زحزحتها عن موضعها ، فأمر الملك الناصر بأن يوضع المنبر فى جامع منفلوط ، ولابد أن أصحابنا أهل منفلوط احتالوا بهذه الحيلة ليحصلوا لجامعهم على منبر عظيم .

وفى كل مدن الصعيد كان نزول ابن بطوطة على القضاة ، ولهذا نجده يتحدث عنهم فى إطناب وإعجاب ، وربما نزل فى المدارس كما فعل فى مدينة «هُو» عندما نزل فى مدرسة تقى بن السراج ، وفى تلك البلدة لقى الشيخ الصالح أبا محمد عبد الله الحسينى من كبار الصالحين الصوفية على طريقة الشاذلى .

ويقف طويلاً فى مدينة قوص ، ويتحدث عن علمائها وصلحائها ، والحق أن قوص كانت فى تلك العصور مركزاً من أكبر مراكز العلم فى عالم الإسلام ؛ فقد كانت ملتقى طرق عظيم ، ومنها أو من «إسنا» إلى جنوبها كان الناس يبدؤون فى السير نحو عيذاب .

وكان الطريق من وادى النيل إلى ثغر عيذاب يشرع عند قوص أو جنوبها قليلاً ، ويسير فى وادى العلّاقى فى اتجاه جنوبى شرقى حتى يصل إلى ذلك الميناء الذى دَرَسَ الآن ، وكان فى بلاد النوبة الحالية فى مقابل مدينة جدة .

وابن بطوطة فى هذه المرحلة من أسفاره متفائل مستبشر حافل القلب بالشوق إلى شهود موسم الحج ، يطرب أشد الطرب لكل ما يتصل بالإيمان والعبادة ، ويسعى سعياً حثيثاً للقاء الشيوخ والأولياء والصالحين ، ولا غرابة فى ذلك ؛ فقد كان شابًّا فى مقتبل العمر فى الثالثة والعشرين من عمره ، ونحن لا نجد فى حديثه لمحة واحدة من ضجر أو ملل ، بل إننا نجده - فى هذه السن الباكرة - منطلقاً فى رحلته فى ثقة تامة بنفسه ، عامرَ الشوق إلى زيارة المسجد الحرام وأداء الفريضة وزيارة قبر المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - فى المدينة المنورة، بالغَ الطرب لرؤية المسلمين والاجتماع بهم والأنس بمجالسهم والتحدث معهم ومقاسمتهم لقمة العيش والاشتراك معهم فى الصلوات والاستمتاع بصحبة الشيوخ والسماع منهم ورؤية أولياء الله الصالحين والتبرُّك بهم والثقة فى صدق كراماتهم، فهو يصدِّق أن بعض أولئك الشيوخ يصلِّى الظهر فى الحجاز والعصر فى الهند ، أو أن « ينفق من الكون » : أى أن رزقه يأتيه من عند الله بأىِّ قَدْرٍ يشاء وفى أىِّ وقتٍ يشاء ! ..

وتلك هى الروح الطيبة السمحة التى تجعل قارئ ابن بطوطة يسعد بما يقرأ ؛ فها هنا شاب لا يمتلك درهماً ولكنه سعيد ، بعيد عن بلده وأهله ، ولكنه مستأنس بالناس أجمعين ، ينام ليلة على فراش وليلة على سطح بيت، وهو - فى كلتا الحالين - سعيد كل السعادة ، ونحن نشاطره هذه السعادة ، ونرافقه فى رحلته بقلوب عامرة بالمسرَّة .

* * *